﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النّحل: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملةُ ذِكْر نعمة الأنعام بترتيب الدَّوابّ في الذِّكر تبعًا لكثرة المنفعة وداعِية الحاجة

وبعد أن انتهت الآياتُ من بيان نعمةِ الله تعالى في خلق الأنعام حيثُ بدأ بها، لكونها أهمَّ من حيث إنَّ منافعها أكثرُ[1] والحاجةَ إليها أدعى، لأنَّ منافعها ضروريَّةٌ، وحاجاتها أصليَّة[2]، ثنَّى بعد ذلك بما هو مهمٌّ، وهو في ترتيبه تالٍ للأنعام في الأهمِّيّة، لكون منافعِها ليست ضروريَّة أصليَّة كالأنعام، وتالٍ لها أيضًا في مقام الإنعام والامتنان، وهو ذِكْرُ ما يُركب من الدّوابِّ، لتحملَ الناس وأغراضَهم أيضًا كما تفعل الأنعام، وساقها كذلك مرتَّبةً من الأعلى إلى الأدنى، ومقدِّما أيضًا ما هو أهمُّ من منافعها وهو الرُّكوب، على ما هو ثانويٌّ وهو التَّزيُّن بركوبها فقال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾: أصل (خيل) يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في تَلَوُّنٍ، فمِنْ ذَلِكَ: الخَيالُ، وهو الشَّخْصُ، وأصْلُهُ ما يَتَخَيَّلُهُ الإنْسانُ في مَنامِهِ؛ لِأنَّهُ يَتَشَبَّهُ ويَتَلَوَّنُ[3]، والخَيال: أصله الصّورة المُجرَّدة كالصّورة المُتصوَّرة في المنام، وفي المِرْآةِ وفي القلب بُعَيد غيبوبة المرئيِّ، ثمَّ تُستعمل في صورة كلِّ أمر مُتصوَّر، والخُيَلاء: التَّكبُّر عن تخيُّل فضيلةٍ تراءت للإنسان من نفسه، ومنها يتأوَّل لفظُ الخيل لما قيل:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 177.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خيل).

إنَّه لا يركب أحدٌ فرسًا إلّا وجد في نفسه نخوة[1]، وعَنِ الأصْمَعِيِّ قالَ: كُنْتُ عِنْدَ أبي عَمرِو بْنِ العَلاءِ، وعِنْدَهُ غُلامٌ أعْرابِيٌّ فسُئِلَ أبو عَمرٍو: لِمَ سُمِّيَتِ الخَيْلُ خَيْلًا؟ فقالَ: لا أدْرِي، فقالَ الأعْرابِيُّ: لِاخْتِيالِها، فقالَ أبو عَمرٍو: اكْتُبوا، وهَذا صَحِيحٌ؛ لِأنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِهِ يَتَلَوَّنُ في حَرَكَتِهِ ألْوانًا[2]، والخَيْلُ في الأصل اسم للأفراس والفرسان جميعًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، ويُستعمل في كلٍّ واحد منهما مُنفردًا، والمُراد به هنا: الأفراسُ.

2) ﴿وَٱلْبِغَالَ﴾: أصل (بغل) يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الجِسْمِ، مِنْ ذَلِكَ البَغْلُ، قالَ قَوْمٌ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِقوَّةِ خَلْقِهِ، وقيل: سُمِّيَ بَغْلًا مِنَ التَّبْغِيلِ، وهوَ ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ[3]، البِغال: جمع بَغْل، والبَغْل واحد البِغال المعروفة الَّتى تُركب، والأنثى: بَغْلة[4]، وهو مُركَّبٌ من الفرس والحمار، ولذلك صار له صلابةُ الحمار وعِظمُ آلات الخيل، وكذلك شحيجُه؛ أيْ: صوته موَلَّد من صهيل الفرس ونهيق الحمار، وهو عقيمٌ لا يولد له[5].

3) ﴿وَزِينَةً﴾: أصل (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسِينِهِ، فالزَّيْنُ نَقِيضُ الشَّيْنِ. يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيِينًا، وأزْيَنَتِ الأرْضُ، وازَّيَّنَتْ، وازْدانَتْ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[6]، والزِّينَةُ ثلاث: زينةٌ نفسيَّة كالعِلم والاعتقادات الحَسَنة، وزينةٌ بدنيَّة كالقوَّة وطول القامة، وزينةٌ خارجيَّة كالمال، فقوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7]، فهو من الزِّينة النَّفسيّة، وقوله ﷻ: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 32]، فقد حُمل على الزِّينة الخارجيَّة، والزِّينَةُ الحقيقيَّة: ما لا يَشين الإنْسانَ في شيْءٍ من أحواله لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة، فأمّا ما يزينه في حالةٍ دونَ حالة؛ فهو من وجه شَيْنٌ[7]، والمُراد بالزِّينة في الآية: الزِّينة الدُّنيويَّة؛ أيْ: تركبونها للتَّزيُّن.

(1) الرّاغب، المُفردات: (خيل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خيل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغل).
(4) الجوهريُّ، الصّحاح: (بغل).
(5) الدُّميريُّ، حياة الحيوان: 1/ 200.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زين).
(7) الرّاغب، المُفردات: (زين).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ اللهِ تعالى في خلق وسائل الانتقال مُتجدِّدة باستمرار وفي كلّ حال

وكما امتنَّ اللّه عليكم بخَلْقِ الأنعامِ لتنتفعوا بها خَلَقَ لكم كذلك الخيلَ والبغال والحمير، لتستخدموها في انتقالكم من مكانٍ إلى مكان بركوبِكم على ظهرِها، أو بِجَرِّها للعربات المهيَّأة للرُّكوب، كما أنَّ هذه الأصناف جعلها اللّه تعالى زينةً لكم بركوبها، وزينةً أيضًا للنّاظرين إليها، وللأرض؛ لِما فيها من بديع صُنْعِ اللّه تعالى، ولا يتوقَّف خلق اللّه ﷻ لوسائل الانتقال عند حدِّ هذه الأصناف، بل إنَّه سبحانه يخلق منها ما لا تعلمون مِمّا يكشف عنه الزَّمان مع مرور الأيّام، وما صناعة السَّيارات والطّائرات وغيرها إلا بتيسيره سبحانه، وبما أودعه في الطَّبيعة من موادَّ وطاقة وقوانينَ كانت هذه المصنوعات من آثار اكتشافِها واستغلالِها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾:

بلاغة الوصل في الآية الكريمة

الواو في جملة ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ عاطفةٌ، حيث عطفت هذه الجملةَ على جملة: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ﴾ [النحل: 5]؛ أيْ: وكما خلق لكم الأنعامَ لِما ذُكِر، خلق كذلك لكم ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾.

معنى (أل) في ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾:

بيان النّعمة بالحيوان لتحقيق رفاه الإنسان

(أل) في كلٍّ من: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾، هي الجنسيَّة المُسْتَغْرِقة لكلِّ أفراد الجنس، فالتَّعريف بالجنس يستغرق سائرَ أصنافها، مِمّا يُدلِّل على عظمة هذه النِّعم، وأنَّ الخير والتَّسخير مركوزٌ فيها، وأنَّها ما خُلقت إلّا لخدمة هذا الإنسان وإسعاده على القيام بمُهمَّة الاستخلاف في الأرض.

نكتة الاقتصار على هذه الأصناف الثَّلاثة:

وتبدو نكتةُ الاقتصار على هذه الأصناف الثَّلاثة ﴿وَٱلۡخَيۡلَ

﴿وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾؛ لكونها المُحقِّقةَ للغاية المذكورة؛ وهي قوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾، فهذه الأصناف مُهيَّأةٌ عن طريق خَلْقِها، لِأنْ تجمع بين الرُّكوب والتَّزيُّن، وفيه نكير على مَن يخالفون سُنَّةَ الله في بعض الأنعام، فقد يركبون أحيانًا البقرَ والجاموس، وهي غيرُ مُعَدَّة لذلك، ففوائدُها تعود إلى أكل لحومها والانتفاع بألبانها، أمّا ركوبُها فخلاف فطرتِها، ولذلك لا يتحصَّل بركوبها لا على الوصول السَّريع إلى المكان المطلوب لكونها بطيئةً في مِشيتها، ولا على التَّزيُّن بركوبها، فما أبشع ذلك المنظرَ.

النَّصُّ على وظيفة (الخَيْلَ والبِغالَ والحَمِيرَ) في الرُّكوب

سرُّ التَّرتيب في: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾:

والتّرتيب في الذِّكر بين الأجناس الثَّلاثة ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾، مُراعًى فيه الشَّرف، فقدَّم الأشرفَ - وهي ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ الصّاهلة - ثمَّ ثنَّى بما يليها وهي ﴿وَٱلۡبِغَالَ﴾ المتولَّدة بينها وبين الحُمُرِ، فهي هجينٌ منها، ثمَّ ثلَّث بذِكْر ﴿وَٱلۡحَمِيرَ﴾ النّاهقة[1].

ترتيب ثلاثتها بمراعاة مراتبها في الشَّرف وأهمِّيَّتها الوظيفيَّة

ويجمع بين ثلاثتِها أهميَّتها في الرُّكوب، والتَّزيُّن والتَّرتيب في الغايتيْن سواء، بمعنى أنَّ الأهمَّ والأشرف في الرُّكوب هو أيضًا الأعلى في التَّزيُّن، والأدنى في الرُّكوب هو أدناها في التَّزيُّن به.

معنى اللّام في: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ هي لام التَّعليل، حيث عُلِّل بها خلقُ الأجناس الثَّلاثة، قال الشّيخ أبو السّعود: "تَعْلِيلٌ بِمُعْظَمِ مَنافِعِها، وإلّا فالِانْتِفاعُ بِها بِالحَمْلِ أيْضًا مِمّا لا رَيْبَ في تَحَقُّقِهِ"[2].

الرُّكوب أوَّلُ وأهمُّ وظيفة، لكلِّ مركوب

نكتة الحذف في: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾:

وعلى طريقة القرآن في الإيجاز الَّذي من وسائله حذفُ ما يُمكن

حذف العامل للدَّلالة عليه تحقيقًا للإيجاز

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 98.

حذفُه لمُبرِّرٍ، فقد حذف العاملَ هنا؛ إذِ الأصلُ: (وخلق لكم الخيل ...)، وذلك للدَّلالة عليه في قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ﴾.

"والفعل (خَلَقَ) المحذوف يتعلَّق به ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾؛ أيْ: خلقها اللّهُ لتكون مراكبَ للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدةٌ لعُمران العالم"[1].

نكتة العدول عن حَملها للأثقال إلى ركوبها واتِّخاذها زينةً:

منفعةُ حَمل الأصناف المذكورة، هي منفعةٌ ثالثةٌ تَلي في الأهمِّيّة المنفعتيْن المنصوص عليهما

مِمّا يُلحظ أنَّ الآية تنصُّ في خلق ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾، على غايتي الرُّكوب والزِّينة، دون النصِّ على غاية حَملِها للأثقال، كما نُصَّ عليها في خلق الأنعام، رغم أنَّها تقوم بذلك أيضًا، فبحكم الواقع هي تقوم بالحَمل إمّا مباشرةً فوق ظهرها كما في الحمير، أو عن طريق جرِّ العَرَبات، وهو ما تقوم به الخيلُ والبغال.

والَّذي يظهر كتعليلٍ لهذا هو أنَّ منفعة حَمل الثَّلاثةِ لِلأثقال، هي منفعةٌ ثالثة تَلي في الأهمِّيَّة المنفعتيْن المنصوص عليهما؛ لكونها ليست مخصوصةً بها وحدها، وأنَّ الإبل مُقدَّمة عليها فيها لكونها المهمَّةَ الأصليَّة لها، وخصوصا في الصَّحراء، ويجوز أن يكون مُعتَمد عدم النَّص على منفعة حَمل الأثقال مع ثلاثتها، سبْقَ النَّصِّ عليها في خلق الأنعام، فأغْنى ذلك عن إعادةِ ذكرها.

وقيل: "لأنَّهم لم تكن عادتُهم الحملَ على الخيل والبغال والحمير، فإنَّ الخيل كانت تُركب للغَزْو وللصَّيد، والبغال تُركب للمشي والغزو، والحمير تُركب للتَّنقُّل في القرى وشَبَهِها"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 107.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 108، وتعليل ابن عاشور هذا مرجعه إلى أنّه يرى أنَّ ما في الآية واقع موقع الامتنان، فكان مقتصرًا على ما ينتفع به المخاطَبون الأولون في عادتهم، وفي كلامه تضييق لمضمون الامتنان ومشمولاته، فلماذا في معرض الامتنان يخصّ فقط المخاطَبين الأوّلين، أيْ: والكائنين وقت التَّنزيل؟.

نكتة العدول عن لام التّعليل: ﴿وَزِينَةً﴾:

قال تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، ولم يَقُلْ: (لتركبوها ولتتزيَّنوا بها) لاختلاف الفاعل في الرُّكوب واتِّحادِه في التَّزيين، ومُسَوِّغ الاختلاف بين التَّعبيريْن:

الـرُّكـوب هو العلَّة الأصليَّة في خَـلْـقِـهـا، والتَّزيُّن بها علَّةٌ تابعة

أوَّلًا: وجود عِلَّة نحويَّة تمنع اقترانَه باللّام، وهي تَوَفُّرُ شرط انتصابه على المفعوليَّة لأجله؛ لأنَّ فاعلَه وفاعلَ عامله واحدٌ؛ وهو الله تعالى، فإنَّه سبحانه هو مَنْ خلقها، وهو مَنْ جعلها زينةً، بخلاف قوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ فإنَّ الفاعل مختلف، فالخالقُ هو اللهُ، والرّاكب المخاطَبون، فلأجل هذا لَحِقَتها اللّام[1].

وثانيًا: الدَّلالة على أنَّ العِلَّة الأصليَّة لخلقها هي منفعة الرُّكوب، وهو المقصود الأصليُّ[2]، وأمّا التَّزيُّن فهو تابع للعلَّة الأصليَّة، وكونها زينةً؛ أيْ: لراكبها، فأشْبَهَ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: 26]، حيث نصَّ أوَّلًا على العلَّة الأصليَّة لخلق اللِّباس وهي سترُ العورات، ثمَّ عطف عليها العلَّةَ التّابعة، وهو كونه زينةً: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾.

أو أنَّها زينة للأرض[3]، وعليه فهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ [الكهف: 7]، وذلك أنَّ ما في الأرض من زينةٍ، يقابل ما في السَّماء من زينةِ الكواكبِ والنُّجوم، الَّتي قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصّافات: 6] وقال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5].

وثالثًا: أنَّه لو قال (وليجعلها زينة لكم)، لصار المعنى أنَّ التَّزيُّن بها أحد الأمور المُعْتَبَرة في المقصود، وذلك غيرُ جائزٍ، لأنَّ التَّزيُّن

(1) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 1/ 195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 107.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 344.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 107، واكتفى ابن عاشور بالنَّص عليه.

بالشَّيءِ يورث العُجْبَ والتِّيه والتَّكبُّر، وهذه أخلاقٌ مذمومةٌ نهى اللّه تعالى عنها وزَجَرَ، فكيف يقول: إنِّي خلقتُ هذه الحيواناتِ، لتحصيل هذه المعاني، بل قال: خَلَقَها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسِكم بواسطتها ضررَ الإعياءِ والمشقَّة، وأمّا التَّزيُّن بها؛ فهو حاصلٌ في نفس الأمر، ولكنَّه غيرُ مقصود بالذّات، فهذه هي الفائدة في اختيار هذه العبارة ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[1].

نكتة الموقع الإعرابيّ لـ ﴿وَزِينَةً﴾:

الوجوه المحتَمَلة في إعراب (وزينة)، توازنُ بين المعاني المُمكنة

الأوّل: هو كونه مفعولًا لأجله، وهو ما مضى ذِكْرُه، ولعلَّه أظهرُها، **والثّاني**: أنَّها منصوبةٌ على الحال؛ أيْ: وخَلَقَها لتركبوها، وهي زينةٌ وجمال، أو خلقها زينةً وجمالًا لتركبوها، **والثّالث**: أنْ ينتصِبَ بإضمارِ فِعْلٍ؛ أيْ: (وخَلَقها زينة)، أو: (وجَعَلها زينةً)، **والرّابع**: أنَّه مصدرٌ لفعلٍ محذوف؛ أيْ: (وَيَتَزَيَّنُون بها زينةً)[2].

نكتة تنكير ﴿وَزِينَةً﴾:

التّنكير للتّفخيم من فصيح البيان الحكيم

ونكتة تنكير ﴿وَزِينَةً﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ تفخيمُ لأمرِها؛ لأنَّها من فعل المُنْعِم العظيم جلّ شأنه وتعالى اسمه، فهو الذي أحسن كل شيء خلقه.

نكتةُ إضمارِ متعلَّق ﴿وَزِينَةً﴾:

اكتفى بقوله: ﴿وَزِينَةً﴾، فلم يقلْ مثلًا: (زينة لكم أو للنّاظر)؛ حتَّى لا تكون مخصوصةً بهذا، فالأصل أنَّها زينة مطلقًا، سواء للرّاكب أم للنّاظر أم للأرض نفسِها، كما تزيَّنت السَّماء بالنُّجوم والكواكب.

معنى الواو في ﴿وَيَخْلُقُ﴾:

علم البشر بالنِّسبة لعلم الله، كقطرةٍ من بحر

الواو في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يجوز أن تكون العاطفة؛ أيْ: على جملة خَلْقِ الخيل، أو هي الاستئنافيَّة، وقد سيقت لبيان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 178.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 506، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 196.

إحاطتِه تعالى وقدرته، وأنَّ ما تناهى إليهم علمُه، يُعدُّ ضئيلًا جدًّا بالنِّسبة إلى علمه الواسع[1].

فائدة التَّعبير بالمضارع: ﴿وَيَخْلُقُ﴾:

الخلق مستمرٌّ ومُتجدِّد، إلى أن يرث الله الأرضَ ومَن عليها

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ﴾ للدِّلالة على الاستمرار والتَّكرار والتَّجدُّدِ، أو: لاستحضار الصّورة[2]، يقول الإمام البقاعي: "أيْ: عَلى سَبِيلِ التَّجْدِيدِ والِاسْتِمرارِ؛ في الدُّنْيا والآخِرَةِ"[3].

نكتة إضمار الفاعل في ﴿وَيَخْلُقُ﴾:

لا مُنازِع للخالق، في قضيَّة الخَلْقِ على الإطلاق

لمّا سبق قولُه تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، في بداية السّورة، أضمر بعدَه فاعلَ ﴿خَلَقَ﴾ [النحل: 3] و﴿خَلَقَهَا﴾ [النحل: 5] و﴿وَيَخْلُقُ﴾ لكونه معلومًا ولا يحتاج لعدم المُنازِع إلى إعادة ذِكْرٍ أو تصريح؛ إذ الخالقُ معروف ولا يُنازِعُه في ذلك مُنازِع.

فائدة الخبر في خلقه ما لا يعلمون:

محدوديَّة علم الإنسان، والدَّلالة على إعجاز القرآن

وقوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد التَّنصيص على بعض ما خلقه الله كالأنعام والخيل، ليُعلِم المُخاطَبين أنَّ عملية الخَلْق مستمرَّةٌ حالًا واستقبالًا، مِمّا يدخل تحت العموم والإبهام المُستفاد من ﴿مَا﴾ بحيث يدخل فيه ما لا يعلمه المخاطَبون من وسائلَ معروفةٍ عند غيرهم وقتَ الخطاب[4].

كما يدخل فيه كلُّ ما توصَّلت إليه البشريَّة حتَّى الآن من وسائل النَّقلِ الحديثة كالسَّيارات والطّائرات، وما ستتوصَّل إليه كذلك؛ لأنَّ

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 123، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 273، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 285.
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 123، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 273، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 285.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 110.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 111.

ذلك كلَّه استثمار لِما أوْدَعَه اللّه في طبيعة الكون من قوانينَ وموادَّ كان لها أكبرُ الأثرِ في حياة الإنسانِ عند اكتشافها.

وعلى هذا تُعتبر الآية بمثابة إخبارٍ بالغيب الَّذي هو وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن[1]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النّحل: 77]، وكما يدخل فيه كذلك الحيوانات الّتي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب، فذكرها هنا على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وذلك بعد أن ذَكَر أوّلًا أحوال الحيوانات الّتي ينتفع الإنسان بها انتفاعًا ضروريًّا، ثُمّ ذَكَرَ ثانيا أحوال الحيوانات الّتي ينتفع الإنسان بها انتفاعًا غيرَ ضروريٍّ[2]، ثُمّ ذَكَر ثالثًا هذا القسم الباقي.

معنى (ما) في ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

عطاء الله في الخلق لا تنتهي عجائبُه إلى يوم القيامة

قوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: ﴿مَا﴾ هنا هي الموصولة، وإيثارُها على (الَّذي) لِما فيها من إبهام وشمول يجعل معناها واسِعًا، قابلًا لاستيعاب كلِّ جديد يتوصَّل إليه الإنسانُ من أسرار الكونِ، وقوانينه المودَعَة فيه من خالقه.

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

المُخاطَب يعلم شيئًا، ولكن تغيب عنه أشياء وأشياء

وعبَّر بالموصول في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إضافةً إلى غرض العموم، لتفخيم شأنِ ما لا يُعلَم مِمّا يخلق اللّهُ، كما تدلُّ على ذلك جملة الصِّلة، وفيه لَفْتٌ لابن آدمَ الَّذي يصيبه أحيانًا غرورُ العلم، بأنَّه مهما علم، فإنَّ ما لا يعلمه أكثرُ وأكثرُ.

نكتة حذف مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

حذف المفعول قصدًا إلى العموم من بيان السِّياق المعلوم

وحُذف مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ دلالةً على طلاقته وتعميمه وأنَّه غيرُ محدود، وأنَّه قد يتجاوز حدودَ الدُّنيا كلِّها إلى ما يخْلُقه اللّه في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 111، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4135.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 178.

الآخرة مِمّا لم يبلغه وهْمُ أحدٍ، ولا خَطرَ على قلبه، لنزداد دلالةً على قدرته بالإخبار، وإن طوى عنّا عِلْمَه حكمةً له في طيِّه[1].

أو أن يكون قد حَذَفَه اختصارًا للعِلم به، والمعنى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ موجِدًا غيرَه ولا مدبّرًا سواه[2].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

عِلْمُ الله مددٌ لا ينتهي وإعجازٌ لا ينقضي

دلَّ التَّعبير بالمضارع على استمرار عدم الإحاطة، بكلِّ ما يخلقه اللّه في الكون، مِمّا هو مُعَدٌّ للرُّكوب والانتقال، لكونه مُتجدِّدًا ولا يلحق به علمُ الإنسان، فإنَّه "لمّا دلَّ على قدرته بما ذَكَر في سياق الامتنان، دلَّ على أنَّها لا تَتَناهى في ذلك السِّياق، فنَبَّه على أنَّه خَلَقَ لهم أمورًا لو عدَّها لهم، لم يفهموا المُرادَ على سبيل التَّجديد، والاستمرار في الدُّنيا"[3].

بلاغة المناسَبة بين ﴿وَزِينَةً﴾ و﴿جَمَالٌ﴾:

الدَّوابُّ جمال يتمتَّع به الرّاكب، ويتسلَّى به النّاظر

وهذا التَّناسب ظاهر جدًّا بين قوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: 6] فكوْن الأنعام في غُدوِّها ورَواحِها لهيْئتها وكثرتها جمالًا، وراحةً نفسيّةً لصاحبها، يُناسب كونَ ركوب هذه الدَّوابِّ ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ زينةً لراكبها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُسن والجمال:

الجمال في الأخلاق والفِعال، والحُسن في الصّورة ويَحِلُّ كلٌّ منهما محلَّ الآخر

قال الرّاغب: الجمال هو الحُسْن الكثير، وهو على ضربيْن: جمال مختصٌّ بالإنسان في ذاته أو شخصه أو فِعله، والثّاني: ما يصل منه إلى غيره[4]، وهو ما دعا العسكريَّ أن يُفرِّق بينهما بهذا المعيارِ،

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 596، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 509.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(4) الرّاغب، المفردات: (جمل).

فذكر أنَّ الجمال هوَ ما يشْتَهر ويرتفع بِهِ الإنْسانُ من الأفعال والأخلاق، ومن كَثْرَة المال والجسم، ولَيْسَ هوَ من الحُسن في شَيْءٌ؛ لأنَّ الحُسن في الأصْل هو للصّورَة، ثمَّ أضاف العسكريُّ أنَّ الحُسن؛ وإن كان في الأصل للصّورة، لكنَّه اسْتُعْمل بعد ذلك في الأفْعال، وكذلك الجمالُ أيْضًا، فإنَّه يُسْتَعْمل في مَوضِع الحُسن فيُقال: وجهٌ جميل، كَما يُقال: وجهٌ حسن[1]، فنَفْهَمُ من هذا أنَّ بين الجمال والحُسن تقاربًا دلاليًّا، واشتراكًا في المعنى العامِّ الحسِّيِّ والمعنويِّ مع تفوُّقٍ للحُسن في الحسِّيِّ (أي: حُسن الوجه والصّورة)، وللجمال في المعنويِّ (أيْ: جمال الفِعال والأخلاق)، وأنَّ كلًّا منهما قد يُستعمل في محلِّ الآخر.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 262.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»